التعليقات المختصرة

على المنظومة التائية
لابن تيمية (ت: 728هـ)

في الافتقار إلى الله تعالى

كتبه:

د. أحمد بن محمد بن عبد الهادي

الألوكة
www.alukah.net

التعليقات المختصرة

على المنظومة التائية

لابن تيمية (ت:728هـ)

في الافتقار إلى الله تعالى

إعداد:

د. أحمد محمد عبد الهادي

-ستره الله بستره الجميل-

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الشرح:

الحمد لله الملك الجبار، الواحد القهّار، رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار، والصلاة والسلام على النبي المصطفى المختار، وعلى آله وصحبه الأخيار، ومَن تبعهم بإحسان ما تعاقب الليل والنهار؛ أما بعد:

فهذا شرح مختصر على المنظومة التائية لشيخ الإسلام وعلم السُّنة الهمام: أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي رحمه الله وطيب ثراه، جمعته على وجه السرعة من كلام أهل العلم وبخاصة تلميذه النجيب، وخليفته الأريب: أبو بكر بن القيم - جعل الله أعالي الجنان مثواه - وأمليته على مجموعة من الإخوة والأخوات الفضلاء، شرفوني بمذاكرة معاني هذه المنظومة المباركة في لقاءين في رمضان الفائت لعام 1445هـ، أحببتُ أن أسوقه إليهم خاصة، ولمن أَحَبَّ فَهْمَ شيء من معاني ومقاصد هذه المنظومة المختصرة النافعة، والله من وراء القصد، هو حسبي وعدتي، ولا حول لي ولا قوة لي إلا به، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

أولًا: تعريف مختصر بالناظم:

- أما الناظم لها فهو: شيخ الإسلام، تقي الدين، أبو العباس، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، ابن تيمية الحراني، الدمشقي، الحنبلي، ولد في حران سنة 661 هـ، وتحول به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر، وناظر العلماء واستدل وبرع في العلم والتفسير وأفتى ودرَّس وهو دون العشرين، وطُلب إلى مصر من أجل فتوى أفتى بها، فقصدها،

فتعصب عليه جماعة من أهلها فسجن مدة، ونقل إلى الإسكندرية، ثم أطلق فسافر إلى دمشق سنة 712 هـ، واعتُقل بها سنة 720 وأُطلق، ثم أعيد، ومات معتقلًا بقلعة دمشق، فخرجت دمشق كلها في جنازته، آية في التفسير والأصول، فصيح اللسان، قلمه ولسانه متقاربان، ومؤلفات كثيرة جدًّا، ربما تزيد على أربعة آلاف كراسة، وقيل: أنها تبلغ ثلاث مائة مجلد، منها:

1. الاستغاثة في الرد على البكري.
2. منهاج السنة النبوية في الرد على الشيعة القدرية.
3. العقيدة الواسطية.
4. شرح الأصبهانية.
5. الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.
6. رفع الملام عن الأئمة الأعلام.
7. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح.

- **مختصرا من الأعلام للزركلي (1/144)، وانظر للفائدة والاستزادة:**

1. الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية للحافظ البزار.
2. الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية للفقيه مرعي كرمي.

ثانيًا: التعريف بالمنظومة:

أما عن المنظومة فهي ثابتة النسبة لناظمها مروية بالإسناد عنه.

يقول تلميذ الناظم الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر الدمشقي الحنبلي المشهور بـ(ابن قيم الجوزية) [ت:751هـ] في كتابه مدارج السالكين [دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة، 1416 هـ - 1996م، (1/520)]:

"وَبَعَثَ إِلَيَّ فِي آخِرِ عُمُرِهِ قَاعِدَةً فِي التَّفْسِيرِ بِخَطِّهِ، وَعَلَى ظَهْرِهَا أَبْيَاتٌ بِخَطِّهِ مِنْ نَظْمِهِ: أَنَا الْفَقِيرُ إِلَى رَبِّ الْبَرِيَّاتِ" ثم ذكر نص المنظومة.

وهي مكونة من إحدى عشر بيتًا، على بحر البسيط، وأصل تفاعيله:

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن ... مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

ومِفتاحه:

إن البسيطَ لديه يُبسط الأملُ ... مستفعلن فاعلن مستفعلن فَعِلُ

نص المنظومة

أَنَا الْفَقِيرُ إِلَى رَبِّ الْبَرِيَّاتِ ... أَنَا الْمُسَيْكِينُ فِي مَجْمُوعِ حَالَاتِي

أَنَا الظَّلُومُ لِنَفْسِي وَهِيَ ظَالِمَتِي ... وَالْخَيْرُ إِنْ يَأْتِنَا مِنْ عِنْدِهِ يَأْتِي

لَا أَسْتَطِيعُ لِنَفْسِي جَلْبَ مَنْفَعَةٍ ... وَلَا عَنِ النَّفْسِ لِي دَفْعُ الْمَضَرَّاتِ

وَلَيْسَ لِي دُونَهُ مَوْلًى يُدَبِّرُنِي ... وَلَا شَفِيعٌ إِذَا حَاطَتْ خَطِيئَاتِي

إِلَّا بِإِذْنٍ مِنَ الرَّحْمَنِ خَالِقِنَا ... إِلَى الشَّفِيعِ كَمَا قَدْ جَاءَ فِي الْآيَاتِ

وَلَسْتُ أَمْلِكُ شَيْئًا دُونَهُ أَبَدًا ... وَلَا شَرِيكٌ أَنَا فِي بَعْضِ ذَرَّاتِ

وَلَا ظُهَيْرٌ لَهُ كَيْ يَسْتَعِينَ بِهِ ... كَمَا يَكُونُ لِأَرْبَابِ الْوِلَايَاتِ

وَالْفَقْرُ لِي وَصْفُ ذَاتِ لَازِمٍ أَبَدًا ... كَمَا الْغِنَى أَبَدًا وَصْفٌ لَهُ ذَاتِي

وَهَذِهِ الْحَالُ حَالُ الْخَلْقِ أَجْمَعِهِمْ ... وَكُلُّهُمْ عِنْدَهُ عَبْدٌ لَهُ آتِي

فَمَنْ بَغَى مَطْلَبًا مِنْ غَيْرِ خَالِقِهِ ... فَهُوَ الْجَهُولُ الظَّلُومُ الْمُشْرِكُ الْعَاتِي

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مِلْءَ الْكَوْنِ أَجْمَعِهِ ... مَا كَانَ مِنْهُ وَمَا مِنْ بَعْدُ قَدْ يَاتِي

ثالثًا: التعليق على المنظومة:

قال شيخ الإسلام رحمه الله:

(أَنَا الْفَقِيرُ إِلَى رَبِّ الْبَرِيَّاتِ ... أَنَا الْمُسَيْكِينُ فِي مَجْمُوعِ حَالَاتِي)

- قوله: (**أَنَا الْفَقِيرُ إِلَى رَبِّ الْبَرِيَّاتِ**): بدأ الناظم رحمه الله نظمه بالحديث عن نفسه واتصافها بالفقر مستعملًا أسلوب الحصر والقصر من خلال تعريف طرفي الجملة الاسمية: المبتدأ، وهو هنا: الضمير (أنا)، والخبر، وهو هنا: (الفقير)، فالمعنى المقصود: أي لا أحد أفقر مني إلى الله سبحانه وتعالى، وهذا مع كونه حق يعم جميعَ البشر مؤمنِهم وكافرهم، إلا أنه كذلك يُظهر تواضع الناظم على جلالة قدره في العلم والعمل رحمه الله وطيب ثراه، وقد قال تلميذه ابن القيم عن تواضعه: "وَلَقَدْ شَاهَدْتُ مِنْ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ مِنْ ذَلِكَ أَمْرًا لَمْ أُشَاهِدْهُ مِنْ غَيْرِهِ، وَكَانَ يَقُولُ كَثِيرًا: مَا لِي شَيْءٌ، وَلَا مِنِّي شَيْءٌ، وَلَا فِيَّ شَيْءٌ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَتَمَثَّلُ بِهَذَا الْبَيْتِ:

أَنَا الْمُكَدِّي وَابْنُ الْمُكَدِّي ... وَهَكَذَا كَانَ أَبِي وَجَدِّي

وَكَانَ إِذَا أُثْنِي عَلَيْهِ فِي وَجْهِهِ يَقُولُ: وَاللَّهِ إِنِّي إِلَى الْآنِ أُجَدِّدُ إِسْلَامِي كُلَّ وَقْتٍ، وَمَا أَسْلَمْتُ بَعْدُ إِسْلَامًا جَيِّدًا".

[تعريف الفقر:]

والمراد بالفقر كما قال يحيى بن معاذ رحمه الله: "ألا تستغني بشيء غير الله"، وأوضحه ابن القيم فقال: "قلت: يريد عدمها - أي الأسباب - في الاعتماد عليها والطمأنينة بها"؛ [طريق الهجرتين ص47].

وعرفه ابن القيم فقال: "ألا تكون لنفسك، ولا يكون لها منك شيء؛ بحيث تكون كلُّك لله"، والمقصود: أن يُقبل العبد بكُلِّيَّته

على ربه عز وجل متذللًا بين يديه، مستسلمًا لأمره ونهيه، معلقًا قلبك بربه.

[حال المفتقر لربه]:

وقد وصف ابن القيم حال المفتقر لربه عز وجل في المدارج [1/427]، فقال: "فَيَحْصُلُ لِقَلْبِهِ كَسْرَةٌ خَاصَّةٌ لَا يُشْبِهُهَا شَيْءٌ، بِحَيْثُ يَرَى نَفْسَهُ كَالْإِنَاءِ الْمَرْضُوضِ تَحْتَ الْأَرْجُلِ، الَّذِي لَا شَيْءَ فِيهِ، وَلَا بِهِ وَلَا مِنْهُ، وَلَا فِيهِ مَنْفَعَةٌ، وَلَا يُرْغَبُ فِي مِثْلِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَصْلُحُ لِلِانْتِفَاعِ إِلَّا بِجَبْرٍ جَدِيدٍ مِنْ صَانِعِهِ وَقَيِّمِهِ ... وَيَرَى أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ قَلِيلًا مِنْهُ وَلَا كَثِيرًا، فَأَيُّ خَيْرٍ لَهُ مِنَ اللَّهِ اسْتَكْثَرَهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَعَلِمَ أَنَّ قَدْرَهُ دُونَهُ، وَأَنَّ رَحْمَةَ رَبِّهِ هِيَ الَّتِي اقْتَضَتْ ذِكْرَهُ بِهِ، وَسِيَاقَتَهُ إِلَيْهِ، وَاسْتَقَلَّ مَا مِنْ نَفْسِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ لِرَبِّهِ، وَرَآهَا وَلَوْ سَاوَتْ طَاعَاتِ الثَّقَلَيْنِ مِنْ أَقَلِّ مَا يَنْبَغِي لِرَبِّهِ عَلَيْهِ، وَاسْتَكْثَرَ قَلِيلَ مَعَاصِيهِ وَذُنُوبِهِ، فَإِنَّ الْكَسْرَةَ الَّتِي حَصَلَتْ لِقَلْبِهِ أَوْجَبَتْ لَهُ هَذَا كُلَّهُ.
فَمَا أَقْرَبَ الْجَبْرَ مِنْ هَذَا الْقَلْبِ الْمَكْسُورِ! وَمَا أَدْنَى النَّصْرَ وَالرَّحْمَةَ وَالرِّزْقَ مِنْهُ! وَمَا أَنْفَعَ هَذَا الْمَشْهَدَ لَهُ وَأَجْدَاهُ عَلَيْهِ! وَذَرَّةٌ مِنْ هَذَا وَنَفَسٌ مِنْهُ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ طَاعَاتٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ مِنَ الْمُدِلِّينَ الْمُعْجَبِينَ بِأَعْمَالِهِمْ وَعُلُومِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ، وَأَحَبُّ الْقُلُوبِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ قَلْبٌ قَدْ تَمَكَّنَتْ مِنْهُ هَذِهِ الْكَسْرَةُ، وَمَلَكَتْهُ هَذِهِ الذِّلَّةُ، فَهُوَ نَاكِسُ الرَّأْسِ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ، لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَيْهِ حَيَاءً وَخَجَلًا مِنَ اللَّهِ.
قِيلَ لِبَعْضِ الْعَارِفِينَ: أَيَسْجُدُ الْقَلْبُ؟ قَالَ: نَعَمْ يَسْجُدُ سَجْدَةً لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ مِنْهَا إِلَى يَوْمِ اللِّقَاءِ، فَهَذَا سُجُودُ الْقَلْبِ".

والافتقار المطلق لله تعالى من أهم خصائص ومقامات العبودية، وبه اتصف الأنبياء والصالحون، قال موسى عليه السلام: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:24]، ولما سئل الإمام أحمد عن حكمة وضع اليمين على اليسار في الصلاة قال: "ذلٌّ بين يدي عزيزٍ".

وهو من أعظم ما تقرَّب به العبد إلى ربه؛ قال أَبو حفص: "أحسَن ما توسَّل به العبد إِلى مولاه دوامُ الفقر إِليه على جميع الأَحوال، وملازمة السنة في جميع الأَفعال، وطلب القوت من وجه حلال"؛ [طريق الهجرتين ص48].

[كيف يُحقق العبد الافتقار لله تعالى؟]

وهذا المقام العظيم يتحقق للعبد بأمرين؛ هما:

- **الأول** : إدراك عظمة الخالق وجبروته، فكلما كان العبد أعلم بالله تعالى وصفاته وأسمائه، كان أعظم افتقارًا إليه وتذللًا بين يديه، قال الفضيل بن عياض: "أعلم الناس بالله أخوفهم منه".

- **الثاني**: إدراك ضعف المخلوق وعجزه، فمن عرَف قدر نفسه، وأنه مهما بلغ في الجاه والسلطان والمال، فهو عاجزٌ ضعيف لا يملِك لنفسه صرفًا ولا عدلًا، تصاغرت نفسه، وذهب كبرياؤه، وذلَّت جوارحه، وعظُم افتقاره لمولاه، والتجاؤه إليه؛ [الافتقار إلى الله للصويان].

- ❖ قوله: (**رَبِّ الْبَرِيَّاتِ**): جمع برية، والبرية الخلق، وتجمع على برايا، وبريات، وهي مأخوذة من الفعل بري يبري؛ أي: خلق، ومن أسمائه تعالى (البارئ) بالهمز وبدونه (الباري)، وفي التنزيل ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: 54] خالِقِكم، قرأ الدوريُّ عن الكسائيِّ: (بارِيكُم) بإمالة الألف.
- ❖ قوله: (**أَنَا الْمُسَيْكِينُ فِي مَجْمُوعِ حَالَاتِي**): المسيكين تصغير مسكين، والمسكين: من السكون وهو الذي أسكنته الحاجة، وهو عند الفقهاء: من يجد معظم الكفاية أو نصفها؛ فيأخذ تمام كفايته سنة من الزكاة"؛ [كشاف القناع للبهوتي (2/272)].
- ❖ قوله: (**مجموع حالاتي**): يعني جميع أموري، وأوقاتي، وحالاتي مِن: غنى وفقر، ومرض وصحة، وكبر وصغر، ونوم واستيقاظ.

= ثم قال:

(أَنَا الظَّلُومُ لِنَفْسِي وَهِيَ ظَالِمَتِي ... وَالْخَيْرُ إِنْ يَأْتِنَا مِنْ عِنْدِهِ يَاتِي)

❖ قوله: (**أَنَا الظَّلُومُ لِنَفْسِي وَهِيَ ظَالِمَتِي**): فكل ظلم يقع على نفسي، فأنا سببه لا غير ذلك، فنسَب الشر والعيب إلى نفسه كما هو مقتضى النصوص:

= قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ سبعة مواضع [البقرة: 57، والأعراف، والتوبة، النحل - في موضعين - العنكبوت، الروم]، وقال أيضًا: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:79]، وقال أيضًا:﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف:76].

❖ (**وَهِيَ ظَالِمَتِي**): ونفسي كذلك سبب من أسباب وقوع الظلم مني، فالظلم منها وعليها، فهي أمارة بالسوء في كثير من الأحيان، تُسوِّل لصاحبها العصيان والكسل، ونحو ذلك مما لا يرضي الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

[أعداء الإنسان في الحياة الدنيا]:

الإنسان في هذه الدنيا بين أعداء كُثر أقربهم من نفسه وألصقهم به أربعة، وصفهم القائل بقوله:

إني بُليت بأربع ما سلّطوا ... إلا لأجل شقاوتي وهواني
إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... كيف الخلاص وكلهم أعدائي؟!

فلا نجاة للعبد إلا بالله سبحانه، ولذلك كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم وأذكاره في كل يوم صباحًا ومساءً: ((يا حي يا قيوم، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين))؛ [السلسلة الصحيحة (7/557)].

❖ (**وَالْخَيْرُ إِنْ يَأْتِنَا مِنْ عِنْدِهِ يَاتِي**): وكل خير يصل إليَّ وأنتفع به في أي شيء من ديني ودنياي، فإنما هو من الله وحده؛ فضلًا منه وكرمًا، لا أستحقه ولست أهلًا له، وإن لم يصل الخيرُ منه فلا واصل به سواه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: 53]، وقال: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: 107]، وقال الشاعر:

يا مَن ألوذ به فيما أؤمِّله *** ومَن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبرُ الناسُ عظمًا أنت كاسرُه *** ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

= ثم قال:

(لَا أَسْتَطِيعُ لِنَفْسِي جَلْبَ مَنْفَعَةٍ ... وَلَا عَنِ النَّفْسِ لِي دَفْعُ الْمَضَرَّاتِ)

❖ قوله: (**لا أستطيع لنفسي جلب منفعة ... ولا عن النَّفْسِ لِي دَفْعُ الْمَضَرَّاتِ**)، هذا كما أمر الله نبيه أن يقول: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 188]، وقال أيضًا: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: 49]، وإن كان هذا في حق النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، فهو في حق غيره من باب أولى.

[معنى المنفعة، والمضرة]:

والمنفعة هي المصلحة وزنًا ومعنًى، ولها صور كثيرة؛ منها: الهداية، والعلم، والصحة، والرزق المادي.

وأما **المضرات،** فهي جمع مضرة، وهي المفسدة، ولها صور كثيرة منها: الضلال، والجهل، والمرض، والفقر المادي.

= ثم قال:

(وَلَيْسَ لِي دُونَهُ مَوْلًى يُدَبِّرُنِي ... وَلَا شَفِيعٌ إِذَا حَاطَتْ خَطِيئَاتِي)

- ❖ قوله: (**وَلَيْسَ لِي دُونَهُ مَوْلًى يُدَبِّرُنِي**): المولى أصلها في اللغة كما قال الراغب الأصفهاني: "الوَلاءُ والتَّوالي ... ويستعار ذلك للقرب؛ من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدِّين، ومن حيث الصَّداقة والنُّصرة والاعتقاد، والوِلَايَةُ: النُّصْرةُ، والولاية تولِّي الأمر ... والوليُّ والموْلى يستعملان في ذلك كل واحد منهما؛ يقال في معنى الفاعل؛ أي: المُوالِي، وفي معنى المفعول؛ أي المُوالَى، يقال للمؤمن: هو وليُّ الله، ويقال الله وليُّ المؤمنين"؛ [انظر: مفردات الراغب ص885].

وكل من ولي أمرًا أو قام به، فهو مولاهُ، ووَليُّهُ، وتختلف مصادرها، فالوَلايةُ - بالفتح - في النسب، والنصرة، وأما الولاية – بالكسر - فهي في الإمارة، والوَلاءُ المُعتق، والموالَى مَن والى القوم؛ [انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (5/228)].

وهو الذي سَمَّى نفسه - عز وجل - بهذا الاسم؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]، فقال - سبحانه وتعالى -: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: 78].

وقال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال:40]، فهو سبحانه المولى، والربُّ، الملكُ، السيدُ، وهو المأمول منه النصر والمعونة؛ لأنه هو المالك لكل شيء؛ [انظر: الثمر المجتبى للشيخ سعيد بن وهف القحطاني ص133 وما بعده].

اللهم يا مولى المؤمنين والمستضعفين، نسألك باسمك يا ولي يا مولى أن تتولَّى أمر إخواننا في فلسطين، فإنهم لا حول لهم ولا قوة إلا بك، وأن تدفع عنهم بما تدفع به عن عبادك المؤمنين، وأن تنصُرَهم على شرِّ أهل الأرض من اليهود ومَن عاونهم، فأنت نعم المولى ونعم النصير.

وأما قوله: (**وَلَا شَفِيعٌ إِذَا حَاطَتْ خَطِيئَاتِي**): فالشفيع قال في المصباح المنير: "مِن شَفَعْتُ الشَّيْءَ شَفْعًا: إذا ضَمَمْتَهُ إلَى الْفَرْدِ"، والشفيع قال في مختار الصحاح هو: "صَاحِبُ الشُّفْعَةِ وَصَاحِبُ الشَّفَاعَةِ"، والمقصود هنا الثاني، والشفاعة هي: "السؤال في التجاوز عن الذنوب من الذي وقع الجناية في حقه"؛ [التعريفات ص127].

❖ وقوله (**إِذَا حَاطَتْ**): قال في المصباح المنير: "وَحَوَّطَ حَوْلَهُ تَحْوِيطًا أَدَارَ عَلَيْهِ نَحْوَ التُّرَابِ حَتَّى جَعَلَهُ مُحِيطًا بِهِ وَأَحَاطَ الْقَوْمُ بِالْبَلَدِ إحَاطَةً اسْتَدَارُوا بِجَوَانِبِهِ"، وقال في مختار الصحاح:

❖ "وَ(أَحَاطَ) بِهِ عَلِمَهُ وَأَحَاطَ بِهِ عِلْمًا. وَ(أَحَاطَتِ) الْخَيْلُ بِهِ وَ(احْتَاطَتْ) بِهِ أَيْ أَحْدَقَتْ بِهِ".

❖ قوله (**خَطِيئَاتِي**): قال مختار الصحاح: "(الْخِطْءُ) الذَّنْبُ، وَهُوَ مَصْدَرُ (خَطِئَ) بِالْكَسْرِ، والاسم: خطيئة"، وتجمع على خطايا وخطيئات؛ كما قال في "المصباح".

= ثم قال:

(إِلَّا بِإِذْنٍ مِنَ الرَّحْمَنِ خَالِقِنَا ... إِلَى الشَّفِيعِ كَمَا قَدْ جَا فِي الْآيَاتِ)

❖ قوله: (**إِلَّا بِإِذْنٍ مِنَ الرَّحْمَنِ خَالِقِنَا ... إلخ**): يقصد الإشارة إلى أن الشفاعة المثبتة في الشرع لها شروط لا تكون إلا بها، الأول هذه الشروط: إذن الله تعالى للشافع؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: 255].

[شروط الشفاعة المثبتة]:

قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسير الآية السابقة:

"هو - أي الله جل جلاله - الذي اتَّصف بصفات الملك الكامل، والتصرف التام النافذ، والسلطان والكبرياء، ومن تمام ملكه أنه لا يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه؛ فكل الوُجهاء والشفعاء عبيد له، مماليك لا يقدمون على الشفاعة لأحد حتى يأذن لهم: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر: 44]، ولا يشفعون إلا لمن ارتضاه الله - وهذا هو **الشرط الثاني** - ولا يرضى - أي رب العالمين - إلا عمن قام بتوحيده واتباع رُسله، فمن لم يتَّصف بهذا، فليس له في الشفاعة نصيب، ...»"؛ [تيسير اللطيف المنان ص18].

- **وأما اسم (الرحمن)**، فهو اسمٌ ثابت لله تعالى، دال على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وَسِعت كلَّ شيء، وعمَّت كلَّ مخلوق، وكتَب الرحمة الكاملة للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله، فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة المتصلة بالسعادة الأبدية، ومن عداهم محرومٌ من هذه الرحمة الكاملة؛ لأنه الذي دفع هذه الرحمة وأباها بتكذيبه للخبر وتوليه عن الأمر، فلا يلومنَّ إلا نفسه ... وبالجملة فالله خلق الخلق برحمته، وأرسل إليهم الرسلَ برحمته، وأمرهم ونهاهم، وشرع لهم الشرائع برحمته، وأسبغ عليهم النعمة الظاهرة والباطنة برحمته، ودبَّرهم أنواع التدبير، وصرَّفهم بأنواع التصريف برحمته، وملأ الدنيا والآخرة من رحمته، فلا طابت الأمور، ولا تيسرت الأشياء، ولا حصلت المقاصد، وأنواع المطالب إلا برحمته، ورحمته فوق ذلك، وأجل وأعلى، وللمحسنين المتقين من رحمته النصيب الوافر والخير المتكاثر ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:56]؛ [تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي ص200].

- **فائدة:** سورة **النحل** دالة على أصول النعم وفروعها التي هي نفحة وأثر من آثار رحمة الله، وسورة **الرحمن** من أولها إلى آخرها عبارة عن شرح وتفصيل لرحمة الله تعالى، فكل ما فيها من ضروب المعاني وتصاريف الألوان

من رحمة الرحمن، ولهذا اختتمها في ذكر ما أعد الله للطائعين في الجنة من النعيم المقيم الكامل الذي هو أثر من رحمته تعالى؛ [تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي ص200].

ثم قال:

(وَلَسْتُ أَمْلِكُ شَيْئًا دُونَهُ أَبَدًا ... وَلَا شَرِيكٌ أَنَا فِي بَعْضِ ذَرَّاتِ)

- قوله: (**وَلَسْتُ أَمْلِكُ شَيْئًا دُونَهُ أَبَدًا**): تأكيد لما سبق ذكره من افتقار العبد إلى ربه، فإن الله هو الملك، والمالك على الحقيقة، وما العبد إلا مالك مؤقت لِما يأذن الله له بتملُّكه في هذه الدنيا الفانية، ثم يغادرها عن قريب ويَقْدُم على الله تعالى فردًا، ليس له إلا ما قدم من عمل صالح أو غير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ... ﴾ [الأنعام: 94]؛ قال في الجلالين: "ويُقَال لَهُمْ إذَا بُعِثُوا ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾ مُنْفَرِدِينَ عَنْ الْأَهْل وَالْمَال وَالْوَلَد ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّل مَرَّة﴾ أَيْ حُفَاة عُرَاة غُرْلًا ﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ أَعْطَيْنَاكُمْ مِنْ الْأَمْوَال ﴿وَرَاء ظُهُوركُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا بِغَيْرِ اخْتِيَاركُمْ"؛ [الجلالين ص178].

وقد قال الشافعي رضي الله عنه:

يريدُ المرءُ أن يُعطى مُناه ... ويأبى اللهُ إلا ما أرادَ
يقول المرء فائدتي ومالي ... وتقوى اللهِ أفضلُ ما استفادَ

وعبَّر هنا بالنكرة في قوله: (شيئًا) في سياق النفي في قوله: (ولستُ أملك) للدلالة على العموم؛ لأن النكرة في سياق النفي تفيد العموم كما هو متقرَّر في فن أصول الفقه، قال العلامة السعدي في نظم القواعد:

والنكراتُ في سياق النفي ... تُعطي العمومَ أو سياقِ النهي

- وقوله: (**وَلَا شَرِيكٌ أَنَا فِي بَعْضِ ذَرَّاتِ**): أي ولا أملك كذلك - ولو على سبيل المشاركة - شيئًا من ذاتي ونفسي، ولو كان شيئا يسيرًا كالذَّرَةِ.

[معنى الذرة:]

وفي الذَّرَة كما قال ابن الجوزي:
"خمسة أقوال: أحدها: أنه رأس نملة حمراء، والثاني: ذرَّة يسيرة من التراب - أي مقدار يسير - والثالث: أصغر النمل، والرابع: الخردلة، والخامس: الواحدة من الهباء الظاهر في ضوء الشمس إذا طلعت من ثقب"، وهو مثل مضروب بما يُعقل، والمقصود أدنى وأقل شيء؛ [زاد المسير لابن الجوزي بتصرف ص406].
وإذا كان الإنسان لا يملك لنفسه شيئًا - ولو يسيرا جدًّا - فمن باب أولى أن يَعرف أنه لا يملك لغيره، ولا يملك غيره له ضرًّا ولا نفعًا، فيتعلق قلبه بالله عز وجل وحده في كل ما يرجو، وفي كل ما يحذَر.
اللهم لا تعلِّق قلوبنا إلا بك، ولا تجعل توكلنا إلا عليك، وكان من دعاء سعيد بن جبير - رحمه الله-: "اللهم إني أسألك حسنَ الظن فيك، وصدق التوكل عليك".
ثم قال:

(وَلَا ظُهَيْرٌ لَهُ كَيْ يَسْتَعِينَ بِهِ ... كَمَا يَكُونُ لِأَرْبَابِ الْوِلَايَاتِ)

- قوله: (**وَلَا ظُهَيْرٌ لَهُ كَيْ يَسْتَعِينَ بِهِ ...**إلخ): بيان لعظيم قدرة الله تعالى وقوته، فهو سبحانه مع ملكه لكل شيء، وحكمه عليه، لا يحتاج إلا مُعين ولا مساند - جل ثناؤه وتقدست أسماؤه - وقد كرر الله تعالى تأكيد هذه المعاني في كتابه؛ حيث قال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: 111]؛ أي: وقل - أيها الرسول -: الحمد لله المستحق لأنواع المحامد الذي تنزَّه عن الولد، وتنزَّه عن الشريك، فلا شريك له في ملكه، ولا يصيبه ذل وهوان، فلا يحتاج لمن يناصره ويعزِّزه، وعظِّمه تعظيمًا كثيرًا، فلا تَنسِب إليه ولدًا، ولا شريكًا في الملك، ولا مناصرًا مُعِينًا؛ [المختصر في التفسير].
وقال تعالى أيضًا: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ

وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: 22]؛ أي: قل - أيها الرسول - لهؤلاء المشركين: نادوا الذين زعمتم أنهم آلهة لكم من دون الله؛ ليجلبوا لكم النفع، أو يكشفوا عنكم الضر، فهم لا يملكون وزن ذرة في السماوات ولا في الأرض، وليس لهم شركٌ فيها مع الله، وليس لله مِن مُعين يُعينه، فهو غني عن الشركاء وعن المعينين؛ [المختصر في التفسير].

ثم قال:

(وَالْفَقْرُ لِي وَصْفُ ذَاتٍ لَازِمٍ أَبَدًا ... كَمَا الْغِنَى أَبَدًا وَصْفٌ لَهُ ذَاتِي)

❖ قوله: (**وَالْفَقْرُ لِي وَصْفُ ذَاتٍ لَازِمٍ أَبَدًا**): أي اتصافي أنا - أي العبد - بالفقر، إنما هو اتصاف به على سبيل الوصف الذاتي، وهو الوصف الملازم لماهية الشيء؛ أي حقيقته، فاتصاف الإنسان بالفقر وصف لا يفارقه، لذلك قال: (لازمٍ أبدًا)، وعكسه ما يُسميه المناطقة بالوصف العرضي؛ أي الوصف الخارج عن حقيقة الشيء وماهيته، والذي قد يفارقه أحيانًا، مثل وصف الإنسان بأنه ضاحك أو ماشي.

وفي المقابل فإن الله - تعالى ذكره - متصف بالغنى الكامل، وهو متَّصف به على سبيل الوصف الذاتي الذي لا ينفك عنه أبدًا، ومن أسمائه سبحانه "الغني"، ولذلك أدلة كثيرة؛ منها:

قوله تعالى: ﴿وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15]، وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة: 28]، ومعنى اسمه (الغني)؛ أي: إن له سبحانه الغنى التام المطلق من كل وجه؛ بحيث لا تشوبه شائبة فقرٍ وحاجة أصلًا، وذلك لأن غناه وصف لازمٌ له، لا ينفك عنه؛ لأنه مقتضى ذاته، وما بالذات لا يمكن أن يزول، فيمتنع أن يكون إلا غنيًّا، كما يَمتنع أن يكون إلا جوادًا محسنًا برًّا رحيمًا كريمًا؛ [شرح النونية للهراس – نقلا عن كتاب صفات الله للشيخ علوي السقاف ص266].

ثم قال:

(وَهَذِهِ الْحَالُ حَالُ الْخَلْقِ أَجْمَعِهِمْ ... وَكُلُّهُمْ عِنْدَهُ عَبْدٌ لَهُ آتِي)

❖ **قوله: (وَهَذِهِ الْحَالُ حَالُ الْخَلْقِ أَجْمَعِهِمْ)؛** أي: ويشترك في هذا الافتقار إلى الله والحاجة إليه جميع الخلق؛ مِن مَلَكٍ مُقرَّبٍ، أو نبي مرسل، أو مَلِك مُتوَّج، أو مسكينٍ مُقْعَد ... فكلهم لا يقدرون عن الاستغناء عن الله تعالى ولو طرفة عين، جل جلاله وتقدست أسماؤه.

❖ وقوله: (**وَكُلُّهُمْ عِنْدَهُ عَبْدٌ لَهُ آتِي**)؛ أي: وكل العباد يحشرون إلى ربهم يوم القيامة خائفين منه خاضعين لحكمه وأمره؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: 87]، وقال أيضًا: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية:28]، نسأل الله حسن العاقبة والختام في جميع أمورنا.

ثم قال:

(فَمَنْ بَغَى مَطْلَبًا مِنْ غَيْرِ خَالِقِهِ ... فَهُوَ الْجَهُولُ الظَّلُومُ الْمُشْرِكُ الْعَاتِي)

❖ قوله: (**فَمَنْ بَغَى مَطْلَبًا مِنْ غَيْرِ خَالِقِهِ ... فَهُوَ** إلخ)؛ أي: فمن طلب شيئًا - مما لا يقدر عليه إلا الله - من غير الله - سواء أكان ملكًا أو نبيًّا أو صالحًا، وسواء كان حيًّا أو ميتًا؛ كطلب الرزق والولد والمغفرة ودخول الجنة ونزول المطر، فقد أدَّاه إلى ذلك جهله بالله وبعظمته، ويكون بذلك قد اقترف الشرك الذي هو أعظم الظلم، نسأل الله السلامة، والشرك هو: تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله.

وأما طلب الأشياء التي لا تختص بالله – كالمساعدة في الأمور الحياتية، كشراء شيء أو الإعانة على لص ونحوه، أو وصف داء ودواء من طبيب - فهذا لا إشكال فيه قولًا واحدًا، وإن كان يلزم المؤمن في كل هذا استصحاب تعلُّق القلب بمسبب الأسباب سبحانه والدعاء، وعدم الاتكال على هذه الأسباب.

❖ وقوله: (**الْجَهُولُ**): كثير الجهل، (**الظَّلُومُ**): كثير الظلم، وهي صيغ مبالغة كما ترى لخطورة الأمر (**الْعَاتِي**): اسم فاعل من عتا، وهو الجبار المتجاوز حدَّه.

ثم قال:

(وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مِلْءَ الْكَوْنِ أَجْمَعِهِ ... مَا كَانَ مِنْهُ وَمَا مِنْ بَعْدُ قَدْ يَاتِي)

❖ **قوله: (وَالْحَمْدُ لِلَّهِ)**، ومعنى الحمد كما يقول ابن القيم: "الإخبار بمحاسن المحمود إخبارًا مقترنًا بحبه وإرادته وإجلاله وتعظيمه"؛ [بدائع الفوائد (2/92)].

❖ **قوله: (مِلْءَ الْكَوْنِ أَجْمَعِهِ)** يعني حمدًا كثيرًا لو كان له جِرم – جسد - وحيِّز، لملأ الكونَ بسماواته وأرضه، وبرِّه وبحره، وكل ما فيه.

❖ **قوله: (مَا كَانَ مِنْهُ وَمَا مِنْ بَعْدُ قَدْ يَاتِي)**؛ أي: هذا الحمد على نعمه السابقة التي حصلت لعبده بالفعل، والحمد له أيضًا على كل نعمة تأتي في المستقبل.

• **فائدة:** أما حديث: (الْحَمد لله حمدا يوافي نعمه ويكافئ مزيده)، فقد قال عنه الإمام ابن القيم - رحمه الله -: "هَذَا الحَدِيث لَيْسَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَلَا فِي أَحدهمَا، وَلَا يُعرف فِي شَيْء من كتب الحَدِيث الْمُعْتَمدَة، وَلَا لَهُ إِسْنَاد مَعْرُوف، وَإِنَّمَا يرْوى عَن أبي نصر التمار عَن آدم أبي الْبشر، وَلَا يدْرِي كم بَين أبي نصر وآدَم إِلَّا الله تَعَالَى!"؛ [جواب في صيغ الحمد لابن القيم ص20].

والحمد لله أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

وصلى الله على عبد ورسوله محمد وعلى الآل والصحب أجمعين.

كان الانتهاء من كتابة هذا الشرح المختصر في ثلاثة مجالس آخرها ضحى الخميس العاشر من رمضان لعام 1445هـ، أتَمه الله لنا على خير، وأعاننا على صيامه وقيامه، إنه جوَاد كريم بَرٌّ رحيم.

المحتويات